حـــوار

بقلم: احمد طلعت

الكواكـــبى

اتمنى ان يقرأ كل واحد من شباب هذا الجيل كتاب (طبائع الاستبداد) الذى الفه - فى مطلع هذا القرن- المفكر العربى عبد الرحمن الكواكبى. الذى اعادت هيئة الكتاب طبعة هذه الايام وعرضته فى الاسواق بسعر رمزى.

وكان كتاب(طبائع الاستبداد) من اهم الكتب التى قرأها جيل الحركة الوطنية فى مصر ، التى بدأت بثورة ١٩١٩ وامتدت حتى قيام حركة يوليو من عام ١٩٥٢ . فعندما كانت الحركة الوطنية تمثل المطالبة بالاستقلال والديمقراطية ، كان كتاب الكواكبى تاصيلا لمعانى الديمقراطية الحقيقية ، وتجسيدا لآمال الشعب فى حكم وطنى يقوم على الارادة الحرة وسيادة الامة.

وبدأ الكواكبى بتشخيص المرض الذى كان يعانى منه المجتمع فقال(ان اصل الداء هو الاستبداد السياسى ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية)

ثم انتقل الكواكبى الى وصف ظاهرة لازمت المجتمعات الشرقية ، وهى ظاهرة التساهل مع الحاكم، فقال (فالشرق مثلا يهتم فى شأن ظالمه الى ان يزول عنه ظلمه ، ثم لا يفكر فيمن يخلفه ولا يراقبه ، فيقع فى الظلم ثانية فيعيد الكرة ويعود الظلم الى مالا نهاية)

ويعبر الكواكبى عن رأيه فى ان الظلم واحد ايا كان مصدره فيقول (ما الفرق على امة مأسورة لزيد ان يأسرها عمرو..؟ وما مثلها الا الدابة التى لا يرحمها راكب مطمئن مالكا كان او غاصبا)

ويتحدث الكواكبى عن كراهية الحاكم الظالم للعلم والعلماء فيقول (ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية ،والفلسفة العقلية ،وحقوق الامم وطبائع الاجتماع ، والسياسة المدنية ، والتاريخ المفصل والخطابة الادبية ، ونحو ذلك من العلوم التى تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الانسان ما هى حقوقه وكم هو مغبون فيها)

ويحلل الكواكبى اسباب استعانة الحاكم الظالم بالاتباع من اهل الجهل والثقة فيقول (المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته. لان للعلم سلطانا اقوى من كل سلطان ، فلابد للمستبد ان يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو ارقى منه علما . ولذلك لا يحب المستبد ان يرى وجه عالم عاقل يفوق عليه فكرا ،فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار الغبى المتصاغر المتملق..!!)

ويؤكد الكواكبى على ضرورة محاسبة الحكام فيقول(ان الحكومة من اى نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد مالم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذى لا تسامح فيه.)

اما اتباع السلطة واداوات الحاكم المستبد فيقول لهم الكواكبى(فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذى لا ينال من الكبير مراده الا بالتذلل والبكاء اوموضع الشيخ الفانى الذى لا ينال حاجته الا بالتملق والدعاء..؟)

وعن الانقلابات العسكرية يقول الكواكبى (وملوك الانجليز الذين فقد وامنذ قرون كل شئ ما عدا التاج لوتسنى الان لاحدهم الاستبداد لغنمه حالا.ولكن هيهات ان يظفر بغرة من قومه يستلم فيه زمام الجيش..!!)

ويقول الكواكبى عن الديمقراطية (وانفع ما بلغه الترقى فى البشر هو احكامهم اصول الحكومات المنتظمة ببنائهم سدا متينا فى وجه الاستبداد . وبجعلهم قوة التشريع فى يد الامة .ويجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء وبجعلهم الامةيقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها . لا تغفل طرفة عين)

وعن النفاق فى عهد الحكومات الاستبدادية يقول الكواكبى(والموظفون فى عهد الاستبداد للوعظ والارشاد يكونون مطلقا . ولا اقول غالبا . من المنافقين الذين نالوا الوظيفة بالتملق . وما ابعد هؤلاء عن التاثير لان النصح الذى لا اخلاص فيه هو بذر عقيد لا ينبت . وان نبت كان رياء كاصله)

وفى تعريف الاستبداد يقول الكواكبى (الاستبداد هو غرور المرء برايه . والانفة عن قبول النصيحة والاستقلال فى الراى وفى الحقوق المشتركة.) اما اسوا انواع الاستبداد فيقول عنها الكواكبى(من اقبح انواع الاستبداد، استبداد الجهل على العلم . واستبداد النفس على العقل . ويسمى استبداد المرء على نفسه)...

وعن اعوان المستبد يقول الكواكبى(المستبد يجرب احيانا فى المناصب والمراتب بعض العقلاء الاذكياء ايضا اغترارا منه بانه يقوى على تليين طينهم وتشكليهم بالشكل الذى يريد فيكونوا له اعوانا خبثاء ينفعونه بدهائهم . ثم هو بعد التجربة اذا خاب وبئس من افسادهم يتبادر الى ابعادهم او ينكل بهم . ولهذا لا يستقر عند المستبد الا الجاهل العاجز الذى يعبده من دون الله. او الخبيث الذى يرضيه ويغضب الله.)

هذه بعض المعانى التى تعلمها (جيل الحركة الوطنية) من مفكرين عظام مثل الكواكبى. وهذه هى المبادئ التى ساروا عليها فترة (الحكم) الوطنى الديموقراطى..فماذا تعلم شباب هذا الجيل من (الحزب) الوطنى الديموقراطى...!!